# المقال التحليلي

## الإنسان والمجتمع الفلسطينيّ والنكبة

مروان دويري*

رغم هول النكبة، باعتبارها أكبر جريمة اقتُرفت في المنطقة في القرن العشرين، فإنّ البحث عن مصادر عنها يؤدّي إلى توثيقات وتحليلات سياسيّة لأحداثها ولإحياء ذكراها ولكثير من الإنتاج الأدبيّ حولها، ولا يجد إلاّ القليل من التحليلات أو الدراسات الاجتماعيّة والنفسيّة لهذه الكارثة. يصبح هذا النقص مستهجَنًا حين نعرف أنّ التطرّق إلى العلاقة بين علم النفس والمحرقة في أوروبا يَردُ في 5,210,000 مصدر إلكترونيّ، معظمها تُحلّل حالة الضحيّة اليهوديّة والمعتدي النازيّ. لا شكّ أنّ لهذه المصادر دَورًا في تعاطف العالم مع اليهود وإسرائيل، وربّما في "تفهُّم وتسامح" العالم مع الممارسات العدوانيّة لإسرائيل. لعلّ هذا العدد من "جدل" يفتح باب البحث الاجتماعيّ والنفسيّ للنكبة.

يكون البحث في علاقة النكبة بالعوامل الاجتماعيّة والنفسيّة مجديًا، إذا انطلق من منظور منظوميّ Systemic لا اختزاليّ Reductionistic، أي أنْ نحلل العلاقة الجدليّة بين النكبة والعوامل الاجتماعيّة والنفسيّة ونعتبر النكبة جزءًا من سيرورة سياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة ونفسيّة متواصلة جاءت بالنكبة وتأثرت بها، لا مجرّد حدثٍ وقع فجأة على الشعب الفلسطينيّ، وترك أثره على المجتمع وعلى الإنسان الفلسطينيّ. لقد وقعت النكبة في إطار ذهنيّة ووعي عربيّ وفلسطينيّ سبق النكبة واستمرّ -على الأقلّ- حتّى النكسة في سنة 1967 تميّز بقراءة خاطئة للواقع وتميَّزَ بجهل جوهر الصراعات والمصالح الدوليّة، والاستخفاف بالعدوّ، والتضخيم للذات، وعدم وضوح الاصطفافات والتحالفات في المنطقة والعالم، وعدم التمييز بين مَن يمكن التعويل عليه ومَن ينبغي الحذر منه.

يشير المصطلح "النكبة" الذي أُطلِق على حرب العام 1948 إلى الوعي السياسيّ والثقافيّ الذي ساد آنذاك، والذي اعتبر الأمر نوعًا من القدَر أو الكارثة الطبيعيّة دون إدراك للمسؤوليّة الذاتيّة عمّا حدث. هذا هو الوعي نفسه الذي كان -وربّما ما زال- يُسقط المسؤوليّة فقط على عوامل خارجيّة كالاستعمار والصهيونيّة وأعداء الأمّة. هنالك فكرة طفوليّة مضمرة في هذا الوعي مُفادُها أنّنا كنّا نستطيع العيش بسلام لولا وجود أعداء وخصوم خارجيّين. هي فكرة طفوليّة لأنّها بعيدة كلّ البعد عن قراءة وفهم الصراعات في العالم، وعن إدراك ضرورة ضمان السلام بواسطة الاستعداد لمواجهة أعداء الأمّة بدل الاحتجاج على وجود هؤلاء الأعداء. لماذا لم يُطلَق على هذه الحرب -مثلاً- "حرب الدفاع عن الوطن"، أو "هزيمة الدفاع عن الوطن"؟ إنّ في مثل هذه التسميات وعيًا لصراع بين

طرفين كان شعبنا الفلسطينيّ والعربيّ أحدهما، وبالتالي لا يمكن تحاشي مراجعة دوره ومسؤوليّته في نتيجة هذه الحرب.

وماذا نقصد حين نقول: "النكبة"؟ أهي حدث وقع في زمان ومكان، أم سيرورة متواصلة وممتدّة، أم الآثار الكارثيّة التي حلّت بالشعب الفلسطينيّ؟ يسود الاعتقاد بأنّ النكبة هي كارثة وقعت عام 1948، استولت إسرائيل خلالها على البلاد، وحوّلت غالبيّة الشعب الفلسطينيّ إلى لاجئين بدون وطن. ولكن أليس هدم مئات القرى الفلسطينيّة ومنع عودة اللاجئين جزءًا من النكبة؟ أليس فرض الحكم العسكريّ واستمراره نحو عَقدين جزءًا من النكبة؟ أليست مصادرة الأراضي التي تواصلت عدّة عقود جزءًا من النكبة كذلك؟ أليس تعليق قضيّة اللاجئين ووقوع موجة ثانية من اللجوء خلال حرب 1967 استمرارًا طبيعيًّا لنكبة لم تنتهِ؟ هذه الأسئلة ترمي إلى التوضيح أنّ النكبة ليست حدثًا وقع سنة 1948، بل سيرورة متواصلة تتحرّك من خلال صراع وتوازُن قوى نشكّل نحن - الفلسطينيّين والعرب- طرفًا من أطرافه، وبالتالي تقع علينا مسؤوليّة في هذه السيرورة وفي توجيهها نحو نهاية لهذه النكبة. أمّا عن الآثار الكارثيّة للنكبة، فلم تقتصر على فقدان الإنسان الفلسطينيّ لبيته وأرضه ووطنه وأهله فحسب، بل فقدَ جزءًا من كرامته وحرّيّته وحقه بالعيش الكريم. لقد كانت النكبة صدمة لمفاهيم وذهنيّة كانت سائدة أدّت إلى فقدان الثقة بالذات الفرديّة والجماعيّة، وفقدان الحلم بالاستقلال، وجعلت الفلسطينيّ يعيش حالة ذلّ واغتراب في وطنه وفي الغربة أيضًا.

هناك جملة من الأسئلة التي لا يجد الباحث إجابة واضحة لها في أدبيّات النكبة: هل جرى تعلُّم "درس النكبة"؟ هل حصل تغيير في الوعي السياسيّ والاجتماعيّ العربيّ والفلسطينيّ، بالمقارنة مع الوعي الذي ساد في مرحلة ما قبل النكبة؟ وإن حصل تغيير في هذا الوعي، هل هو تغيير جوهريّ وعميق بعمق الجرح، أم إنّه تغيير شكليّ، أم إنّه يأتي كجزء من تغيّرات عامّة في الوعي السياسيّ والاجتماعيّ في المنطقة والعالم؟ وهل حصل هذا التغيير بنفس المقدار والاتّجاه لدى القيادات والشعب، أم حصل على نحوٍ متباينٍ بين الفئات المختلفة؟

أيّة إجابة عن هذه الأسئلة تكون بمثابة اجتهاد أو فرضيّة خاضعة للدحض أو الدعم بالاعتماد على معطيات غير متوافرة حاليًّا بين يدينا، منها مثلاً الادّعاء أنّ الشعب الفلسطينيّ تعلّم درس اللجوء، وأنّه لن يترك بيته، بل سيبقى في وطنه في أيّ ظرف. أحقًّا هو الأمر كذلك؟ والادّعاء أنّ الشعب الفلسطينيّ اليوم لا يعوّل كثيرًا على "الإخوة" العرب أو "الأمّة العربيّة" كما كان قبل العام 1948، أهو ادّعاء مُحِقّ؟ والادّعاء أنّ المواطنين العرب في إسرائيل هم الأوعى سياسيًّا من سائر الفلسطينيّين، أهو مُحِقّ؟

إنّ الإجابة عن سؤال تعلُّم درس النكبة يتطلّب مراقبة التغيير في الوعي الفلسطينيّ عبْر مراحل. ربّما إنّه بين العامين 1948 وَ 1967، وهذه فرضيّة أيضًا، بقي الشعب الفلسطينيّ يعيش حالة إنكار للواقع وصراع بقاء يوميّ دون أن يصل إلى حدّ إعادة النظر. بعد وقوع النكسة سنة 1967، التي هي طبعة مكرّرة من النكبة، عاش الشعب الفلسطينيّ حالة انهيار للواقع المتخيَّل، وحالة يأس واكتئاب جماعيّ إلى حين وقوع حرب تشرين عام 1973.

بعدها بدأت صحوة جوهريّة في الوعي الفلسطينيّ وفي أداء منظّمة التحرير الفلسطينيّة والقيادات الفلسطينيّة في الداخل كان أوّل مظاهرها يوم الأرض في عام 1976. لقد تميّزت هذه الصحوة بتحمُّل المسؤوليّة وأخْذ القضيّة بأيدينا والكفّ عن التعويل على الآخرين، وفي نفس الوقت تميّزت بفهم أعمق لطبيعة الصراع، وبفرز أوضح بين العدوّ والصديق. يبقى هذا التحليل افتراضيًّا ينتظر البحث المتعمّق.

ثمّة أسئلة أخرى لا يجد الباحث إجابة شافية لها: هل الشعب الفلسطينيّ يعاني الصدمة النفسيّة -كما تُعرَّف الصدمة النفسيّة في الأدبيّات النفسيّة الغربيّة (ما يسمى "اضطراب ضغط ما بعد الصدمة" Post-traumatic stress disorder, PTSD)-، أم يعاني الشعب الفلسطينيّ أو يواجه حالة أخرى مختلفة؟ إزاء تأدية اليهود وإسرائيل دَوْرَ الضحيّة المطلقة، هنالك ميل مفهوم لدى البعض إلى الادّعاء أنّ الشعب الفلسطينيّ هو كذلك ضحيّة، بل يعاني صدمة نفسيّة؛ والمقصود في هذه الحالة أنّه يعاني PTSD كما يعاني اليهود الناجون من المحرقة. أهو ادّعاء مُحقّ؟ لنأخذ في الاعتبار أنّ أعراض الصدمة هي ثلاثة: اجترار غير مُجْدٍ وعاجز لأحداث الصدمة من خلال استرجاع تلقائيّ لا إراديّ لهذه الأحداث على نحوٍ يشلّ الأداء الطبيعيّ للإنسان في حياته؛ إحجام ذهنيّ أو عاطفيّ أو سلوكيّ للتعامل مع كلّ ما يتعلّق بالصدمة يتخلله النسيان وتخدّر المشاعر والابتعاد عمّا يتعلّق بمكان الصدمة؛ وتيقُّظ لا إراديّ وأرَقٌ وصعوباتُ تركيزٍ وانفجاراتٌ عاطفيّة لا تُناسب الحدثَ. هل يعيش الشعب الفلسطينيّ هذه الحالة؟ وهل هذه الحالة هي السائدة والتي تصف حالَهُ اليوم في إسرائيل والضفّة وغزّة والشتات؟ لا شكّ أنّ النكبة هي صدمة مروّعة، لكن تأثير الصدمات على الإنسان ليس واحدًا؛ فالصدمة يمكن أن تكسِر أو تعطّل أو تشوّش أو تشتّت، لكنّها كذلك يمكن أن تصحّي أو تقوّي أو توحّد أو تبني، وعليه فوقوع النكبة لا يعني حتمًا أنّ الشعب الفلسطينيّ شعب منكوب أو مصدوم بمعنى العجز وفقدان القدرة على الأداء والبقاء كما هي حالة "اضطراب ضغط ما بعد الصدمة". من يراقب حالة الشعب الفلسطينيّ يجدها بعيدة عن حالة العجز بالرغم من أنّه يواجه أكبر القوى في العالم اليوم: شعب يرفض أن يركع، ويقاوم بكلّ السبل جيلاً بعد جيل، وعلى مدار أكثر من قرن دون كلل. قد تكون العاطفة السائدة لدى الشعب الفلسطينيّ -في غزّة اليوم؛ مثلاً- هي الغضب، لا الخوف ولا العجز، وهو ليس غضبًا منفلتًا، بل هو غضب موجَّه في سبيل الصمود والبقاء -من جهة-، وفي سبيل المقاومة -من جهة أخرى-. لا ريب أنّ بعض الأفراد الفلسطينيّين والأُسَر الفلسطينيّة عانت أو تعاني "اضطراب ضغط ما بعد الصدمة"، لكن هل هذا ما يميّز الحالة العامّة السائدة في صفوف الشعب الفلسطينيّ؟

حين نحاول توصيف المميّزات العامّة لكيفيّة مواجهة الفلسطينيّ للنكبة المستمرّة، علينا ألاّ نغفل الفوارق في طرق مواجهة الفئات المختلفة من الناس. كما هو الأمر لدى سائر الشعوب، ثمّة فئات من الناس اتّخذت موقفًا وطنيًّا ثوريًّا متفائلاً، وثمّة فئات اتّخذت موقفًا مستسلمًا ويائسًا. هنالك من ربط قضيّته الفرديّة بالقضيّة القوميّة العامّة، وهناك من آثر فصل قضيّته الخاصّة والبحث عن حلول شخصيّة له ولأسرته، وبالطبع كان هناك من سلك نهجًا انتهازيًّا، وربّما تماهى مع القاهر. هذه القراءة تستفزّ الباحث نحو محاولة فهم ديناميكيّة ممارسة طرق المواجهة المختلفة. على سبيل المثال: ما هو النظام الذاتيّ والموضوعيّ الذي يدفع بأحدهم نحو المواجَهة الوطنيّة الجماعيّة،

وما هو ذلك النظام الذي يدفع نحو الاستسلام أو نحو مواقف انهزاميّة؟ يتطلّب الأمر دراسة متعمّقة لمثل هذه الحالات ولسيرورة تَحرُكها في هذا الاتّجاه أو ذاك.

وثمّة قضيّة أخرى تفرض خصوصيّة ما على الإنسان الفلسطينيّ والنكبة، هي كون المجتمع الفلسطينيّ مجتمعًا جماعيًّا يشكّل فيه الفرد جزءًا لا يتجزّأ من كيان جماعيّ. هذه الخصوصيّة تثير جملة من الأسئلة: ماذا حصل لنظام الأسرة أو الحمولة أو العشيرة؟ هل ضعُفَت أم بقيَت أم اتّخذت شكلاً جديدًا يوحي بالتغيير ويخفي بقاءَ جوهرها؟ ما هو الدَّوْر الذي قامت به هذه الأطر الجماعيّة؟ ما هو دَوْرها في بقاء الإنسان الفلسطينيّ وصموده؟ ما هو دورها السياسيّ؟ هل قامت هذه الأطر الجماعيّة بدَوْر رجعيّ مناقض للأهداف القوميّة دائمًا، أم كان لها دَوْر في دعم وتوطيد الأهداف القوميّة؟ هذه الأسئلة نفسها يمكن أن نطرحها بخصوص دَوْر الدين في القضيّة الفلسطينيّة. الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست جاهزة ولا بسيطة. من يبحث عن الدور الرجعيّ لهذه الانتماءات الجماعيّة أو الدينيّة (وهذا هو التوجّه السائد) فسيجد الدليل على هذا، لكن كذلك من يبحث عن الدَّوْر الوطنيّ لهذه الانتماءات سيجد أنّ هذه الانتماءات قامت -في كثير من الأحيان- بدَوْر وطنيّ دفعت بأعضائها نحو قرارات ونشاطات نضاليّة وطنيّة.

بالرغم من القدريّة التي كانت وراء إطلاق المصطلح "النكبة"، وربّما لأنّه ينسجم مع الوعي الذي كان سائدًا، كان لهذا المصطلح دَوْرٌ موحِّد حشَدَ جميعَ فئات الشعب الفلسطينيّ في مسيرة تاريخيّة لها ماضٍ مشترَكٌ وهدف قوميّ واحد. هكذا جرى توحيد الفلسطينيّين الذين بقوا في بيوتهم والذين هُجّروا في وطنهم والذين هُجّروا إلى الدول العربيّة أو الشتات، رغم اختلاف تجاربهم. لهذا كان للمصطلح "النكبة" دَوْرٌ مؤسِّسٌ في تكوين الهُويّة القوميّة الفلسطينيّة لفئات مختلفة مرّت بتجارب غير متطابقة. هذا يقودنا -كباحثين- إلى إثارة سؤال يبدو غير أخلاقيّ، إلاّ أنّ التغاضي عنه يحجز جانبًا مهمًّا من الحقيقة ويَحُول دون فهم تجربة النكبة. هل كان للنكبة وما تلاها، بالإضافة إلى الثمن الباهظ المعروف، مردود إيجابيّ على الشعب الفلسطينيّ؟ أو ماذا كان سيخسر الشعب الفلسطينيّ لو أنّ النكبة لم تحدث، وحُقق الاستقلال القوميّ للفلسطينيّين أسوة بالمصريّين والأردنيّين والسوريّين واللبنانيّين أو غيرهم من الشعوب العربيّة؟ إنّ الإجابة عن هذا النوع من الأسئلة تتطلّب فكرًا مبدعًا يخرج عن قوالب التفكير السائدة لفهم تجربة النكبة فهمًا أعمق، وللاستفادة منها في خطّ طريقنا المستقبليّ. وثمّة سؤال آخر يبدو غير أخلاقيّ كذلك، وقد يثير حفيظة المتحمّسين دون امتلاك جرأة على المراجعة، إلاّ أنّ الأمانة الفكريّة تُحتّم طرحه: هل طريق الاستقلال القوميّ وتحقيق حقّ تقرير المصير هو الطريق الأوحد لضمان مستقبل الشعب الفلسطينيّ، أم إنّ طريق الاندماج أو الاتّحاد هو كذلك طريق جدير بالبحث والاهتمام؟ تتكشّف أهمّيّة هذا السؤال على ضوء تجارب شعوب أخرى حققت الاستقلال القوميّ عن الاستعمار الكلاسيكيّ، لكنّها وقعت ضحيّة استغلال حكّام قاوموا الاستعمار في الماضي، إلاّ أنّهم يتعاملون اليوم مع الوطن كحديقة شخصيّة؛ وعلى ضوء تجارب معظم دول العالم الثالث التي استقلت سياسيًّا، إلا أنها تقع اليوم -كدولة مستقلة- ضحيّة للاستعمار الاقتصاديّ والثقافيّ المُعَوْلم؛ وكذلك على ضوء تجارب شعوب أخرى لم تُحقق الاستقلال، بل اختارت الاندماج أو الاتّحاد، وتمكّنت من تحقيق عدالة وكرامة ورخاء أكثر ممّا حققته الشعوب التي تعيش في دول قوميّة مستقلة.

ما أرمي إليه في هذه المقدّمة هو تقديم عرض أوّليّ لرؤية منظوميّة ديناميّة لسيرورة النكبة، وإثارة بعض الأسئلة أو الفرضيّات التي تتطلّب البحثَ المتعمّق للإجابة عنها. الأمر يتطلّب الخروجَ عن حدود القوالب السائدة القوميّة والأيديولوجيّة، والاتّصافَ بالجرأة على بحث جوانب قد تقع ضمن التابو وطنيًّا. وهنا أجدني على اتّفاق تامّ مع تعريف إدوارد سعيد للمفكّر وللمثقف الذي يجرؤ على "الطعن في المعايير والأعراف السائدة" والخروج على "التشكيلة الجماعيّة"، ويستطيع "تمثيل المعاناة الجماعيّة لأبناء شعبه" لا من منطلق تعصّبيّ شوفينيّ، بل من منطلق أخلاقيّ يعتمد القيم الإنسانيّة العالميّة بصورة مثابرة، ولا يستحوذ انفراديًّا على دور الضحيّة، ولا يتسامح مع الممارسات اللا أخلاقيّة لبعض فئات شعبه.[1]

***بروفيسور مروان دويري** - محرر العدد ومحاضر في كلّيّة أورانيم الأكاديميّة

[1] كتاب إدوارد سعيد "المثقف والسلطة".